قراءة أولى في (تحت الرماد) رواية حرب جنوبية (١-٢)

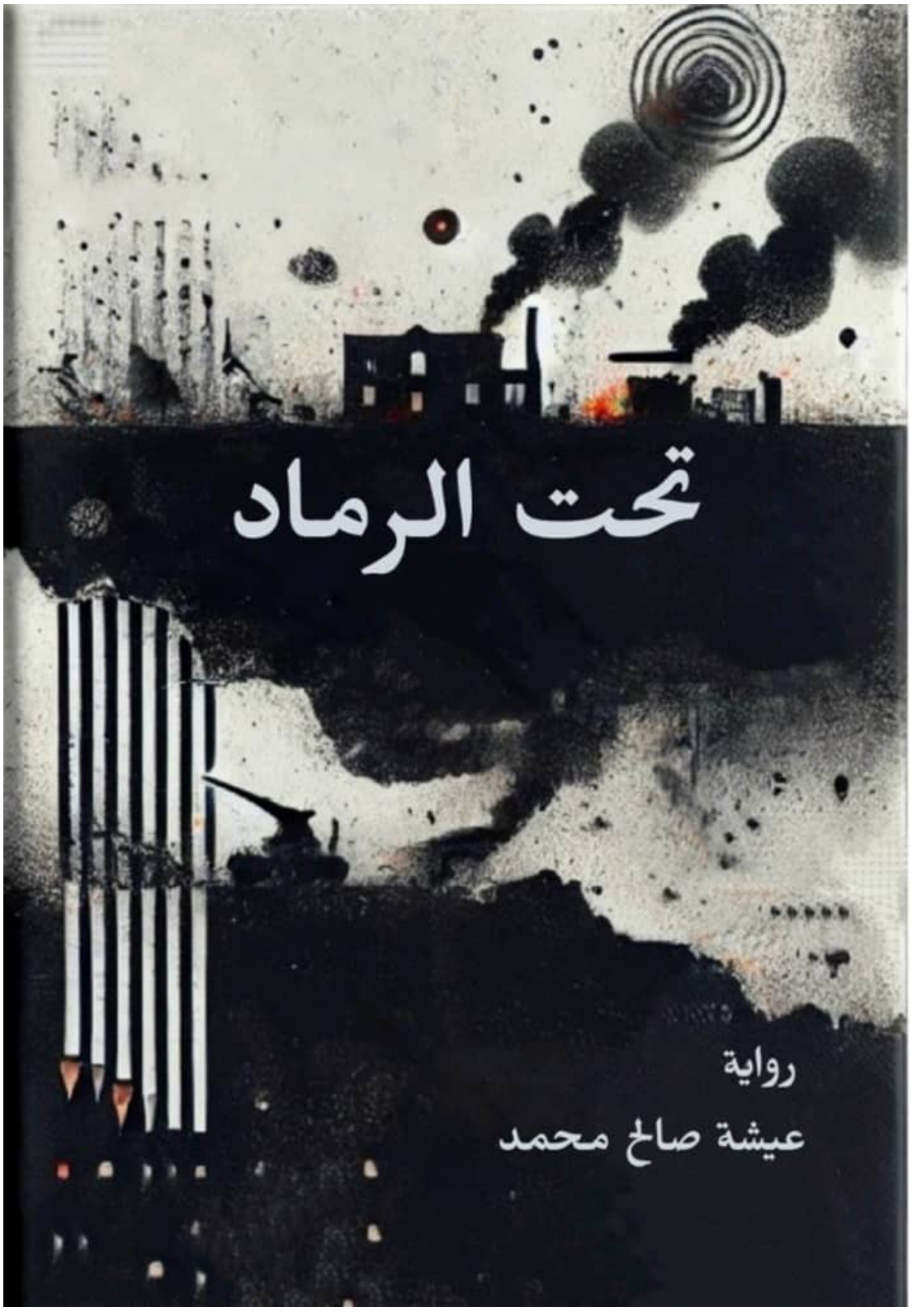

الأمناء / كتب / مسعود عمشوش:

هناك بعض الكتابات التي قامت بتوثيق الحرب التي شنها الحوثيون وقوات المخلوع صالح على عدن والجنوب بشكل عام سنة 2015، وذلك من خلال الاتكاء على شهادات وقصص واقعية سلطت الضوء على المعاناة التي عاشها أبناء الجنوب أثناء فترة تلك الحرب، التي بدأت في أواخر مارس 2015 عندما سيطرت قوات شمالية على مطار عدن الدولي ومناطق واسعة في المدينة، وظلت المقاومة الشعبية الجنوبية تسيطر على مساحات محدودة في المدينة.

وخلال السنوات القليلة الماضية صدرت بعض الأعمال الأدبية الخيالية التي صورت بعض أحداث تلك الحرب، لعل أبرزها رواية الأديبة عيشة صالح: (تحت الرماد)، التي ستصدر قريبا عن مطابع اتحاد أدباء وكتاب الجنوب، والتي نقدم في السطور الآتية قراءة أولى لها.

مثل معظم مؤلفي روايات الحرب استوحت مؤلفة (تحت الرماد) جزءا كبيرا من أحداث رواياتها من وقائع الحروب التي شنتها ولا تزال تشنها القوات الشمالية المتحوثة منذ سنة ضد الجنوب 2015، وتصور فيها الحقائق والفظائع التي عاشها ويعيشها سكان مدينة عدن خلال فترة تلك الحرب، وذلك من وجهة فتاة من بنات عدن: تغريد. إضافة إلى ذلك تتميز هذه الرواية أنها تمزج بين السرد بضمير المتكلم أنا (في بداية الرواية باستثناء صفحة واحدة) والسرد بضمير الغائب في الجزء الثاني من الرواية.

تبدأ الرواية بفصل بعنوان (الماضي)، تسرد فيه الراوية تغريد بطلة الرواية بعض الأحداث المرتبطة بطفولة أمها التي تربت يتيمة في قرية رساب بيافع، وتكتب فيه: «أخبرتني أمي عن طفولتها الهانئة عندما كانت تعيش في «رساب» قرية من قرى يافع الخضراء المتكئة على وادي رساب الخصيب، شمال عدن، مع أبيها وأمها وأخويها الذين يكبرانها، أسعد يكبرها باثني عشر عاما، أما حسن فالفرق بينهما ثمان سنوات. ولم يكن أحد يجرؤ على إغضابها فهي مدللة أمها وأبيها، وكم كان أخويها يعمدان إلى ملاعبتها وإضحاكها كمقدمة لحاجة لدى أبيهم، أو لتحنين قلب أمهم حين يقترفان خطأ، كانا وغدين منذ الصغر. مرارا تخبرني أمي عن تلك الأيام كطيف جميل يلوح في الأفق، أو صورة من صور الجنة عالقة في ذاكرتها، تستدعيها من حين لآخر، لتعيش لذة الذكريات التي كادت تتحول إلى خيال جميل ولو لدقائق، تخبرني عن رائحة خبز أمها الذي لا يضاهيه خبز أي امرأة».

وتتحدث الراوية كذلك عن العلاقة السيئة بين أمها بزوجها (والد تغريد)، الذي لم يكن يرغب في الإنجاب وتكتب: «مضت الأشهر التسعة وجئت إلى الحياة، رغما عن كل محاولات التخلص مني ... ليتك يا أمي أطعت أبي في هذا الأمر فحسب، هذا الشيء الوحيد الذي اتفق مع أبي فيه، أنه ما كان علي أن أولد، كيف عساي أن أعيش وأنا الكارثة بالنسبة لأبي والغلطة لأمي؟»

ولا تتحدث تغريد كثيرا بعد ذلك عن أبيها الغائب دوما عن البيت العائلي، وتكتب: «اجتزت سنوات عمري بين أم منهكة نفسيا وجسديا، وجدة لا تقل إنهاكا، سبعون عاما وهي تطل على الدنيا والدنيا تأباها، فكيف لا تضع بصماتها عليها، أما أبي لا نراه إلا في زيارات متقطعة ولا يعلم أحد إلى أين يذهب أو ماذا يفعل؟».

ثم تسرد تغريد بعض تفاصيل طفولتها في كريتر عدن برفقة أمها وجدتها، وتذكر أنها ملت تلك الحياة وظلمة البيت وتفضل البقاء طويلا في الشارع، وتقول: «هروبي إلى الشارع كان وسيلة لتحاشي البقاء مع أمي وجدتي لأنهما تشعرانني بالألم والحسرة، لمجرد النظر إليهما، ناهيك عن سماع شكواهما إلى بعضهما البعض التي لا تنقطع يوما، لا يمر يوم دون أن أسمع «يا حسرة، الموت أهون لي ولا هذه العيشة» «ولا أحد يرجى منه فائدة» ما الذي ورطني بهذا كله» يا رب خراجك». وكنت مرارا أرى الدموع في عيني أمي ولا أعرف ما الذي علي فعله لأنهي ذلك، أو التخفيف من معاناتها. دائما ما أشعر بأن هناك شيء ما ينبغي أن يحدث ليتغير كل شيء ولا أعلم ما هو وكيف يحدث؟ فأهرب إلى الشارع لتجنب رؤية الحزن في عيني أمي، وتنهيدات جدتي مشاعري مختلطة ومتضاربة، أشفق على أمي حين أرى البؤس في عينيها، ثم تنقلب المشاعر إلى كره، نعم كنت أكرهها في بعض الأحيان، أخجل أن أقول ذلك».

وتذكر تغريد أنها كانت تلميذة متميزة تجيد التعبير، لهذا فهي تسرد لنا قصتها بسلاسة، وتؤكد: «كنت محبة للتعليم، وأعشق حصة التعبير، خلاف بقية الطلاب حيث يتذمرون منها، لاسيما حين يكون التعبير حرا، كنت أكتب كلاما يفوق سني، أكتب عن مشاعري التي قد لا يفهما أحد، وأبتكر قصصا عشتها في أحلام يقظتي، حين أكتب أشعر أنه قد نبت لي جناحان، أحلق بهما حيث أشاء. كنت أبذل ما بوسعي للتفوق ليس للنجاح فحسب، كنت أتوق إلى ترتيب أعلى بكثير مما كنت عليه، كنت أغبط زميلتي عندما أرى مشهد الاحتضان والتصوير في يوم توزيع الشهادات، رغم أني متقدمة عنها في المركز إلا أني لا أجد عشر الحفاوة التي تجدها. أحببت المدرسة والشارع وأي مكان آخر إلا البيت، أشعر فيه بالاختناق، أشعر أنه مكان مخصص للحزن، لا بهجة فيه ولا سرور، لم يكن لدي القدرة على وضع المسميات في مكانها وتوصيف الأمور، كنت أشعر أنني أريد حياة أخرى فحسب، غير هذه التي أعيشها». ص22

وبما أن تغريد فتاة عصامية فقد بادرت إلى البحث مبكرا عن عمل، وتذكر: «ما كنت أنتظر من أحد أن يهبني شيئا ولا مائدة تهبط من السماء، بل كان اعتمادي على نفسي سبيلي منذ صغري، فقد عركتني الحياة وعلمتني من دروسها قبل أواني. فاشتغلت في العديد من المتاجر المنتشرة في مدينة كريتر، متجر المثلجات، متجر الزينة، متجر العطور ، وغيرها ... وكنت أحسن عادة الادخار والتخطيط لمشاريعي الخاصة، فكان أول مشروع فكرت به ونفذته وأنا في الثالثة عشرة، مشروع لوحات الفلين، فكنت أعمد إلى اختيار صور وطباعتها بأحجام مختلفة وقص ألواح الفلين ولصقها عليه وبروزتها بشكل أنيق مع تعليقة أو مسند خلفي، فأجد كثير من الزبائن الذين يرغبون في شرائها، وبعضهم يختار هو الصورة فأشتغل عليها، ومشروع آخر أبدعت فيه وهو صناعة أساور الخرز والنمنمات، كانت مشاريعي الصغيرة تلك تشعرني أني كبيرة متفوقة على أقراني، عندما أفتح صندوقي الصغير الذي أدخر فيه».

ثم تتناول الراوية تغريد إرهاصات حرب ٢٠١٥، وتكتب «مرضت أمي ولا أعلم ما هو مرضها على التحديد، ولكنها أصبحت هزيلة منهكة تلزم الفراش معظم الوقت، وجدتي أزداد قلقها وتوترها الذي كان يتزايد مع أزمة الوضع العام للمدينة، ففي مستهل العام ٢٠١٥، في مرحلة الدراسة الثانوية، بدأت إرهاصات الحرب، وبوادرها تفعل فعلها، حتى اندلعت الحرب وأصبحنا قاب قوسين من الهلاك... كانت معارك الحرب تقترب أكثر فأكثر من منزلنا، ويبدو أننا كنا على بعد أمتار قليلة فقط من شرارة قد تحول حياتنا رأساً على عقب». ص٢٧ وتضيف: « 2015 عام الفزع؛ كنت في سن السابعة عشرة، محاطة بضغوطات الدراسة الثانوية، ولكن بدلاً من أن تكون مرحلة من الاكتشاف والطموحات، كانت تراكم على عاتقي تلك الأحداث المروعة، بدأت إرهاصات الحرب تتصاعد، كما لو كان الظلام يعلن بكبريائه عن فعلته الوشيكة، وكل يوم يثبت تواجدها بشكل مزعج. وفي لمح البصر، اندلعت الحرب بكامل قوتها، وأصبحنا نعيش على وشك الهلاك... ساد البلاد هدوء غريب تلك الليلة من ليالي شهر مارس وكأن الهواء نفسه قد شعر بالتوتر المتزايد. بدأ صدى الانفجارات يصدح في الأفق، ولكن لم يكن هذا الأمر غريبا في تلك الأوقات العتيقة. ومع مرور الوقت، رأينا أنفسنا محاطين بأنباء مروعة، حتى كريتر أصبحت جحيما وسط هذا الجحيم، لم تعد الحياة اليومية شيئا مألوفا. الروتين اليومي الذي كان يملأ المنازل بالحياة والنشاط تحول إلى انتظار كئيب حتى البسمات والدموع أصبحتا تشاركان نفس السطر الواحد. وهكذا، تغلغلت ميليشيات الحوثي في حياتهم، استفحال الأمراض، وقتل الأحلام، وتفتيت حواس الأمان. وسط كل هذا، وفي ضوء الدمار واليأس، تجد غدير نفسها تكافح للبقاء قوية لأجل عائلتها، وتسعى لرسم بصيص من الأمل في سماء الكرب.